طرف الخيط ..

وأخيرا ... انطلقنا الى حريب ..

وحريب آخر منطقة فى اليمن الحرة ، تجاورها بيحان ، احدى المحميات التى يحتلها الانجليز

ويصر اليمنى المشتغل بالسياسة على تسمية المحميات باليمن المحتلة أما المواطن اليمنى فلا يقول محميات ولا محتلة .. بل بيحان وعدن ، وحريب كلها أجزاء من وطنه الكبير .. ويتنقل بينها رافضا كل قانون ... ساخرا من أولئك الذين جاءوا فى نهاية الزمن ليبنوا فوق الرمال حدودا وحواجز ...

ولكن الصحراء لم تكن أبدا بلا حدود .. عندما كانت ثروة الصحراء فى المراعى ... كان القتال حول العشب .. واليوم عندما استحالت دماء القبائل ، وعرق العبيد وظمأ الملايين الذين أراقوا حياتهم فوق الرمال .. استحالت الى ذلك السائل السحرى ... « البترول » بدأت بريطانيا تبحث عن الحدود ...

ويندفع اليمنى خلف ناقته الشاردة من « درب طهيف » الى « درب مصعبين » .. واذا بالرصاص يجندله .. ويصدر بلاغ عسكرى بريطانى معلنا أن احدى الداوريات قد أطلقت النار على بعض الارهابيين اليمنيين أثناء محاولتهم التسلل من امارة حريب الى محمية بيحان .. وقد وقع الحادث داخل المحمية البريطانية .. الخ »

ويموت اليمنى وهو لا يفهم أية حدود تلك التى تخطيت ، ولا كيف يمكن أن تصده هذه الحدود عن اقتفاء أثر ناقته الشاردة ..

وكان عنينا أن نر هذه الحدود ·· والضحايا اليمنيين الذين يتساقطون على الجانبين ···

وحملتنا الى هناك سيارتان جيب ·· أربعة من المصريين والمستر وين ، وفشنفسكى ·

وحاكم حريب الذى هو حاكم مأرب ·· أسمر البشرة ، خفيف الحركة ، يضع منظارا على عينه الوحيدة يتفرس طويلا فى محدثه ·· قبل أن يتكلم ·· ويحرك لسانه فى سرعة فائقة ، يرتدى جلبابا فضفاضا تحته فانلة حمراء ذات أكمام طويلة ·· ويضع خنجرا فى وسطه ـ اسمه السيد احمد الكبسى ، من بلدة حسين الكبسى ، أول مندوب لليمن فى الجامعة العربية ·· والذى اشتهر فى الصحافة باسم المندوب المستمع ···

وكان معنا بالطبع « السيد احمد الشامى » الذى قضى فى السجن خمس سنوات ، ثم خرج ليكون مندوب الملك فوق العادة ·· وهو فى القاهرة يجلس فى سميراميس ·· ويرتدى آنق الثياب ، ·· وفى حريب ، يرتدى الزى الوطنى ، ويجلس على الرمال ، يخط على الارض ويفهم الاعيب الدبلوماسيه العالمية ويدير خيوط السياسة العربية وينطق الضاد ظاء ، ويحكى عن المياه « والسلك » أى « التلغراف » « والمعنكش » أى « المشبك » ويشرب البن مرا ، أى قهوة سادة ··

وزكب معنا بعض من رجال الحرس حتى اكتمل عددنا خمسة عشر

وتحركت السيارة فى الساعة الخامسة والنصف بتوقيت مصر ·· والسادسة والنصف بتوقيت عدن ·· والثانية عشر لا أدرى ظهرا أم مساء بتوقيت المملكة المتوكلية اليمنية ···

وبدأ فشنفسكى يغنى أغنية أمريكية من سنوات الحرب ، مطلعها ستة عشر ساعة فى عربة جيب مكشوفة ·· واتجه بنا الطريق شرقا ثم الى الجنوب ··· ودخلنا فى الصحراء الحقة حيث المعركة الابدية

بين الفناء والحياة شجرة الاثيل تمد افرعهـــا الى السماء وتأتى الرمال فتدفنها ·· وتقاوم الاشجار وتنتصر الحياة وتمد بأعينها من جديدة ·· نافضة عن كاهلها الرمال ··

والجبال تلتف فى شكل دائرة محكمة ، حتى ليبدو وكأنه لا منفذ على الاطلاق ·· وتتولد فى نفس العربى مزيجا من المشاعر ما بين الاحساس بالاختناق ·· والجبال توشك أن تنطبق من كل جانب ، فيتطلع الى السماء ويديم التطلع حتى تختلط الارض بالسماء ويدور فى دوامة هائلة لا يدرى أين طرفاها ··

وبين الجبال ينمو فى نفس العربى احساس بالانطـلاق لا يحـده شىء وينمو الرجال الاصلاب ·· الذين لا يعرفون حدودا ولا قيود··

وأمامنا كانت « جبال مراد » ، ومنها خرج « عبد الرحمن بن ملجم » أشأم أهل الارض كما يسميه الشيعة ·

انه المثل الخالد على فشل سياسة الاغتيال ·· والارهاب الفردى ·· ما من انسان تمنى خيرا كهذا الرجل ·· وما من انسان نال شرا وتجمعت حول اسمه لعنة كتلك التى أحاطت باسم « عبد الرحمن بن ملجم » ····

كان المسلمون قد اختلفوا وتقـاتلوا ، وبطلت انتصـاراتهم ·· ووقفت الغزوات التى وحدت صفوفهم ··· وعاد الصراع الطبقى يدمر وحدتهم ·· ويدفعهم الى التقاتل فيما بينهم ··· وأقبـــل الرجال من البادية ، وأعالى الجبال ، يريدون الجهاد فى سبيل الله·· فما راعهم الا قتل المسلم ، لاخيه المسلم ·· وطالت الحرب ·· ودب السام وطالت الهدنة ، والجيشان يتلاقيان ، ويتناقشان ·· واذا تناقش الجنود فقد بدأت الثورة ···

وحول خط الهدنة فى « صفين » نبتت كل الجماعات ، والمذاهب ، والفلسفات ، والحركات الثورية والرجعية فى الاسلام ···

ومن هؤلاء كانت أول جمعية ارهابية ··

اجتمع ثلاثة وقرروا ان سر البلاء يكمن فى ثلاثة ·· على ومعاوية وعمرو بن العاص ···

ومنحوا أنفسهم حق الحكم والادانة ··

ثم شاركوا الرب فى التنبؤ بالمستقبل ··· فقرروا ان زوال هؤلاء الثلاثة سيفضى الى وحدة المسلمين ··

وتقاسموا أعناق الزعماء فيما بينهم ·· وكان « علىبنأبىطالب » رضى الله عنه من نصيب « الشقئ » عبد الرحمن بن ملجم ··

وكان أشقى الثلاثة ، فهو وحده الذى نجح فى مهمته ·· بينما لم ينجح صاحباه الا فى قتل حارثة بدلا من عمرو ·· وتحديد نسل معاوية ···

وقتل على ··

وانفرد معاوية بالحكم ··

واتحد المسلمون حول خليفه ···

ولكن شيئا مما كان يريده المتآمرون الثلاثة لم يتحقق

وكان محالا أن ينبت الدم المسفوك ظلما ·· سلاما أو محبة أو طمأنينة ···

ويقول الشامى ، ان جبل مراد تسكنه قبيلة مراد أشجع وأقوى قبائل اليمن ويروى أن بقمة الجبال قرى عامرة وأراض خصبة ·

وفجأة ·· تحيط بنا فوهات بنادق ·· ويظهر رجال قد صبغوا وجوههم بمادة زرقاء نعرف أنها النيلة ·· التى تصبغ بها الثياب أو تلطخ بها الحموات عندنا فى الريف وجوههن عقب وفاة زوج البنات

وقال المرافقون من اليمنيين أن ذلك لون من التجميل · ولا أظنها عادة عربية ، ربما جاءت من أفريقيا السوداء وربما أجبرتهم عليها ظروف الحياة فى الصحراء ، حيث تهجم وتهاجم فى الليل ·· ومن يدرى لعل آل عبد الرحمن بن ملجم عند ما بلغتهم الجريمة التعسة

التى ارتكبها ·· وضعوا النيلة على وجوههم ، وأقسموا ألا يرفعوها، حتى يبيض على رضى الله عنه وجوههم بشفاعتـه وعفوه يوم لا ظل الا ظله ·

وفى الساعة التاسعة والربع بتوقيت القاهرة ، والعاشرة والربع بتوقيت عدن ·· والرابعة بتوقيت صنعاء سمعنا أزيز الطائرات ·· وكان المستر وين هو أول من سمع الازيز ، ولعل ذلك لانه أطولنـا قامة ··! وبادر الامريكى يشير فشنفسكى قائلا : « هذه هى الطائرات الميج ·· »

واحتج الروسى بقوله : « لو كانت ميج لرأيتها قبل أن تسمـع صوتها »

ورأيناها ·· نقطة بيضاء لامعة ·· تتبعها أخرى ··
وأفتى فشنفسكى ان الاولى طائرة استكشاف والثانية قاذفة قنابل

وقال الامريكى ··

« أعتقد أننا فوق أرض يمنية ···

وكنا لا نزال على بعد ١٣ كيلو مترا من مدينة حريب التى لا يزال الانجليز يعترفون بأنها أرض يمنية ···

وسيطر على القافلة جو غريب من الجدية والاهتمـام ، والشوق المشـوب بالقلق ··· ان أخطـار الصخور ، والرمال ، والجبـال والسيارات ، والذئاب ، تثير فى النفس رهبة ··· ولكنها من نوع يختلف تماما عن تلك التى تحس بها أمام الانسان المتربص لاغتيالك

وهذه الطائرات من فوقنا تملك أن تنهى حياتنا ، بقطعه من الحديد تلقيها ·· وتمضى فى طريقها دون أن يعترضها معترض ·· فى هذه المنطقة العارية من كل وسائل الدفاع ··! أو كما وصفها صاحبنا الامريكى « أكثر بقاع العالم أمنا وسلاما ··· ولكن للمعتدين ·· »
وطلبنا مقابلة قائد المقاومة اليمنية ، والرجل المتهم بزيادة حـدة

التوتر فى الشرق الاوسط ٠٠ واثارة المتاعب لبريطانيا وفقا للخطة التى وضعها ناصر وشبيلوف ٠٠ الخ

وجاء الشيخ عبد الرحمن السجاف ، عملاق يزن مائة وخمسين كيلو جراما ٠٠ له لحية بيضاء تتصل بشعر الرأس ٠٠ وتنطلق على سجيتها ، أقدامه صلدة جافية من طول صراعها مع الصخر والرمال ٠٠ يحيط خصره الضخم بحزام تصطف فيه الرصاصات ، ويحمل على كتفه بندقية ضخمة ٠٠٠

وسارعنا نتفحص البندقية « الروسى » وللاسف لم تكن سوى بندقية مكتوب عليها بالعربية « المانيا ده نقار جمالنده أوبرن ١٣٠٦ » ولست أدرى معنى ذلك ، ولكن أجزم أنه ليس كلاما روسيا وان كان تاريخ صنعها هو ذلك الرقم ١٣٠٦ ٠٠ وأغلب الظن أنه هجرى اذ لا أظن أن البنادق كانت قد اخترعت فى هذا التاريخ ميلاديا ٠٠ وعلى أى حال فمن حق هذه البندقية أن تحتفل باليوبيل الماسى بعد خمس سنوات ٠٠!

ورغم ذلك فلا زالت فى الخدمة ٠٠!

ويحملها الشيخ عبد الرحمن السجاف ، ويقف ليصد زحف الدبابات والنفاثات ومدافع الماكينة التابعة لحلف الاطلنطى ٠٠!

وقلب المستر « وين » البندقية فى يده ٠٠ ثم انفجر صائحا « انها جريمة ترتكب هنا ٠٠ كيف تحارب بريطانيا هؤلاء ؟ لماذا لا تهاجم روسيا ٠٠ ؟ »

وقبل أن يرد ممثل الاتحاد السوفيتى كان عبد الرحمن السجاف يتكلم :

« لقد احتل الانجليز صباح اليوم حصن السجاف بعد أن دكوه بالمدافع الحارقة والمدافع الرشاشة ٠٠ »

ونسأل نحن فى هلع « هل مات أحد ؟ »

ويجيب اليمنى « ماكتير » أى ليس كثيرا ·· ويكمل قبل أن تخيب آمالنا كصحفيين ·· « خمسة رجال وأربعة حريم وحداش من الاولاد ··· الانجليزى ما يحمكنا أبدا ·· احنا اسلام ·· كيف يحكمنا الانجليز ؟ بيضربونا بالرشاش احنا ما معنا قوات تكافحهم»

وبدأ الجرحى يتوافدون ··

جار الله على القردعى ، مصاب فى ظهره ·· ويده ··

وقبل أن نسأله يجيب « الله يلعن الانجليز ·· كيف بضربونى وأنا فى وطنى ·· »

ثم على محمد الطهيفى ، مصاب فى كتفه ، وظهره ، وبطنه ·· عبد الرحمن الطهيفى ···

طالب بن سعيد الطهيفى ·· من بيحان والقبيلة واحدة طبعا تسكن على الجانبين بين بيحان وحريب ، ولكن بريطانيا تريد أن تقيم حدودا فى جسم القبيلة··!

وطالب بن سعيد يقول « نحن لاجئين لامير المؤمنين ·· احنا من الوطن ·· »

وعلى بن ناصر المصعبى ، من بلدة عين فى بيحان هرب الى حريب ·· ويصف ذلك « هجموا على الديار ·· هربت ·· تركت الجمال والوطن والابيار ·· هربت ما أقدر أدافع عن نفسى ·· يبغوا ياخدونا رعية ·· واحنا ما نبغاهم! »

ويجلس على ناصر المصعبى الهارب منذ أسبوع الى جانب الشيخ العجوز ، على المصعبى من نفس قبيلته شقير ·· ولكنه هاجر منذ عشرين عاما ·· ولا يجيب عن أسئلتنا الا بقوله « واسلاماه ! أرغب الامام ! »

ويحدثنا بعضهم عن حـــكام المحميات ، وهم طراز من اشتبـاه الرجال قد انقرض من العالم ، أشبه بمهراجات الهندوسلاطين الزنج منذ ثلاثة قرون ..

يحكون ان الشريف حسين الهبيلى حاكم بيحان .. يعلق صورة ملكة بريطانيا ، ويشير اليها قائلا .. هذه هى حامية الاسلام ...

ألم أقل لكم أنهم طراز من الرجال انقرض منذ ثلاثة قرون ..

الاتباع الاذكياء فى قرننا هذا قد استبدلوا صورة ايزنهاوربصورة الملكة التى غربت عنها الشمس ..

وطلبنا الذهاب الى خط النار .. وبذل « الشامى » محاولات مستميتة لمنعنا خوفا على حياتنا .. ولكنه يضطر للموافقة أمام اصرارنا .. ويقبل معنا « عبد الرحمن السجاف » الذى اختار لركوبه طريقة عجيبة لا تتناسب وحجمه الهائل .. فقد تشبث بيديه وأصابع القدمين فى مؤخرة السيارة

ومضت السيارة تغوص فى الرمال .. لقد رأيت بعينى رأسى ، مؤشر السرعة على رقم ثلاثة ، والموتور يدور بكل قوته .. أى أننا كنا نسير بسرعة ثلاثة كيلو مترات فى الساعة !

ومن الغريب ان العربة انقلبت وقمنا من تحتها ننفض ثيابنا من الرمال ولم يعلق أحد منا على انقلاب السيارة بحرف كأنه أمر عادى وطبيعى جدا ..!

ولم يثر دهشتنا الا عند ما عدنا الى فندق الكندرة . وازال البانيو الفاخر كل متاعبنا .

وفجأة .. صاح أحد الاربعة المصريين ..

« هل تذكرون .. لقد انقلبت فوقنا السيارة » ؟!

وبدا لنا جميعا أن ذلك لم يكن سوى فيلما مرعبا قد رأيناه وسيطرت حوادثه المؤلمة على مشاعرنا ، فلم نتنبه لحادث تافه أصاب ثيابنا حتى عدنا الى البيت فى نهاية السهرة ..!

كنا ننتظر الموت .. ونتوقع الموت ..

تركنا خلفنا جرحى .. ونسعى الى الحرائق والقتلى والعدوان .. فكيف يثير انتباهنا حادث تافه مثل انقلاب السيارة ؟!

وفضلنا أن نسعى على أقدامنا الى جبل « قعدر » حيث الداوريات البريطانية

وجبل « قعدر » يشرف على حريب ·· من ارتفاع ٣٠٠٠ قدم وتنبسط المدينة وقراها تحته فى استواء مكشوف يجعلها تحت رحمة مدفع رشاش واحد ···

وقرب الجبال رأينا كهلا عجوزا ·· يمسك سكينا يحك بها مقدمة قنبلة ، لا زال بها أثر من بارود ·· ويحتك الحديد بالبارود ، محدثا شرارة من النيران ، وتلمع عينا اليمنى بالفرحة الخالدة التى غمرت قلب الانسان عند ما اكتشف لاول مرة أن الاحتكاك يمكن ان يولد نارا ··

ونعرف أنها بقايا قنبلة بريطانية ، ألقيت صباح اليوم ··

ويشتد اقترابنا من الجبل ··

وفجأة ··· نسمع صياح « دبابة » ··· دبابة ··
أما الصائح فهو حارس يمنى يحمل حربة ·· نعم حربة تساوى مبلغا هائلا فى دار الآثار العربية ·· فهى قطعا الحربة التى قاتل بها معن بن أوس منذ أربعة عشر قرنا فحسب ·· ومزودا بها·· يقف المواطن اليمنى فى نقطة الحراسة !

وتقدمنا لنرى الدبابة ·· ولم تكن سوى سيارة مصفحة ·· ـ وكله عند العرب دبابة

وأعد المصور آلاته ·· وبدأنا نسجل ··

وفجأة ··· أوشكنا أن ندخل التاريخ ··· انهال الرصاص من الجانب البريطانى ·· رصاص عجيب له أزيز وصفير ·· ربما لاخافة الرعاة السذج ···

وقبل أن يحس أحد ، ··
كان الروسى يندفع الى الامريكى فيجذبه الى الارض ·· وتمرق رصاصة ذلت صفير متخطية شعر المستر وين ببضع ملليمترات ···

ونزحف على بطوننا ·· فوق الرمال ، مفلتين من قبضة التاريخ حتى نختفى خلف حواجز السيول التى يقيمها اليمنيون ··

ويشد الامريكى على يد فشنفسكى، الذى أنقذ حياته من الرصاصة الانجليزية ·· ولا نجد وقتا للتعليق والقفش على الحرب الباردة ، التى ذهبت بحرارة الرصاص ··

وأسرع أحدهم ، فهمس بضع كلمات فى أذن القائد عبد الرحمن السجاف ·· ويترجم لنا الشامى ألفاظ اليمنى الى العربية الفصحى ونعرف أن مواطنا قد أصيب اصابة قاتلة عند السفح ، فنسرع الى هناك ، وقد انتابنا الهلع والقلق ·· بينما عبد الرحمن السجاف يسأل فى هدوء « وين ·· ولد مين ·· »

وعرفنا أنه صالح قاسم شعبان من قرية سلعان ··

ورأيناه هناك ····

أسمر شديد السمرة عارى الجسد ·· الا من « هلاهيل » غير متماسكة لا يحمل سلاحا روسيا ، ولا حتى تركيا ··

انه راع كان يقود قطيع الماعز عند ما أصابته طلقة فى بطنه فسقط ·· وظلت الطائرات البريطانية المقاتلة ·· تطارد الماعز ·· حتى أجلتها عن الخطوط الامامية ! وتلقى النفاثات ، القنابل الحارقة ، والصاروخية ، على أشجار الدوم حتى دكت عن آخرها ··

وكانت النار لا تزال مشتعلة ، عند ما وصلنا الى هناك ··

وأحطنا بالمصاب ·· نحاول أن نلتقط بضع كلمات ···

ولم أكن قد رأيت انسانا يموت قط ··

وكان يهمس والدم يتدفق على الرمال الساخنة ·· وتفوح فى الجو رائحة غريبة ·· رائحة انسان يموت ·· وتختفى سمرة البدن

والساق العارية ·· مخلفة صفرة كئيبة ·· والشمس الحارقة تلهب كل شيء ···

ويتطلع الى ··

وأنظر فى عينيه ···

وأحس أنه يريد شيئا ··· وأتلفت حولى فلا أرى الناس ولا الجبال ولا السماء ·· وتضيق الصحراء المترامية ·· وأحس كأننى فى سجن أسواره العينان الخابيتان ···

ماذا تريد ··؟!
أرجوك يا أخى لا تسألنى المستحيل ··
أرجوك يا أخى لا تحملنى العذاب ···
أن فى عينيه سؤالا ··
انه يريدنى أن أقدم له شيئا
انه يريد ان يطلب منى شيئا

لا تطالبنى بأن أرد اليك الحياة ·· لقد خرجت من هذا الثقب فى أحشائك ·· وانسابت بين حبات الرمال ·· وأنى لى أن أجمع قطرات الدم من ذرات الرمال ··؟!

لا تسألنى طبيبا يا أخى ·· لقد أرسل لكم العالم المتمدين قنابل ودبابات وكوكاكولا وسجائر ·· وحتى الزهرى ·· جاءكم من أقصى العالم الجديد ·· ولكنهم لم يرسلوا طبيبا واحدا ·· لو سألتنى قطعة من القطن لاحتجت الى طائرة تحضرها لك فى ساعات ···

أخى !·· أرجوك ··! أستحلفك بكل ما يربط بيننا أن تنطق·· أن تتكلم ··

لو مت وهذه النظرة الشاكية ·· السائلة ·· الخرساء فى عينيك فسأقضى حياتى وهى تطاردنى ··

أستحلفك أيها الشهيد ·· بكل دماء شهدائنا

منذ أن كان أقوياء ·· يقتلون دعاة الحق ، وأصحاب المبادىء

وهمس الجريح ·· « افتكرنى يا شيخ عبد الرحمن ··· التـار ··· التار · أشهد أن لا اله الا الله ·· »

وأسلم الروح ··

وصاح السجاف «مات العربى·· مات الرجال ـ أى الرجل ـ قتله الانجليز ·· الله أكبر عليهم ··· والله ما نسلم لو نموت كلنا ··

وتمتم الشامى « ولست أبالى حين أقتل مسلما ، على أى جنب كان فى الله مصرعى ··

***

ومددت يدى أغمض العينين ··

وأغطى جراحى ··

·· جراح أخى العربى ··

ورفعت يدى وهى تقطر بالدم ··

دم شريف ·· أريق فى معركة التحرر ·

وسرت سخونة الدم فى أصابعى ·· وقد أمسكت بالخيط كله··

وعرفت أنه لا ينتهى ····